الغريزة والتربية

الغريزة والارادة والعادة هي العوامل الكبرى التي تكيف حياتنا اليومية بما فيها من الاميال والاهواء والرغبات والعواطف والافكار والتصورات والاقوال والافعال والاختبارات . ولا يعني هذا ان حالاتنا النفسية التي لا تحصى تقسم الى ثلاثة اقسام الغريزة احدها والارادة ثانيها والعادات ثالثها بل ان هذه العوامل تشترك في تعيين كل فكر يطرأ على بالنا وكل كلمة نفوهُ بها وكل عمل نأتيهِ. فالغريزة تعين اميالنا السمومية وقابلياتنا ورغباتنا المتباينة. والارادة تعين نوع العمل الخاص والغاية منهُ وزمن حدوثهِ. والعادة تتكفل بتنفيذ قرارها بدقة عجيبةٍ وسرعة نادرة المثال . فالغريزة مثلا تعين حالتك السمومية في ليلة ساهرة اذا كنت محدثاً بارعاً تجتذب القلوب بسحر حديثك وتخلب الالباب برقة الفاظك وانسجام عباراتك . او خجولاً لا تتكلم الاَّ اذا سئلت ولا تنطق الا اذا طلب اليك. وارادتك او افكارك تعين لك الاشياء التي تقولها والاعمال التي تأتيها والمواقف التي تتخذها. والعادة تكوّن الكلمات وتحرك اللسان والشفاه وسائر اعضاء النطق وتنفذ امر الارادة من حيث هيئة الجسم ووقفتهُ واشارات اليدين والرأس والعينين وغيرها

الغرائز اميال طبيعية تدفعنا الى العمل على اساليب معينة وطرق خاصة بل هي قوى محركة كامنة في تركيب جهازنا العصبي الخاص بنا بعضها موروث من اسلافنا في الجنس. وبعضها من اسلافنا في الاسرة. والبعض الآخر خاص بنا نمتاز بهِ عن كل شخصٍ آخر في الكون . فكل عمل تأتيهِ دون اكتساب او تقليد سببهُ هذا التركيب العصبي الخاص وهو عمل غريزيٌّ. ويصعب جداً احصاء غرائز الانسان لان امر التفريق بين الغريزي وغير الغريزي صعب جداً واذا حاولنا تدوين كل الاعمال الغريزية المختصة بالجنس البشري وبدأنا باعمال الطفل البسيطة انتهينا بعد شقةٍ طويلة باعمال الام الرؤوم التي تمتاز بها عن سواها كالتضحية وانكار الذات

« فالطفل في عهد طفوليتهِ الاول يبكي ويعطس ويخرّ ويسعل ويتثاءب وينشج ويتقيأ ويصيبهُ الفواق ويحرك اعضاءهُ وعند ما يوضع ثدي امهِ في فيهِ يرضع

واذا وضعت عصا في راحته قبض عليها بأصابعه . وكلما عا جسمهُ زادت الغرائز الظاهرة فيصير يقبض على الاشياء المختلفة ويحرّك يدهُ في ناحية فيهِ ليأكل ما يحملهُ فيها غير مفرّق بين النافع والضار والمفيد والمؤذي . ثم يصير قادراً على القعود والوقوف والحبو والمشي وحينئذٍ تبدأ غرائز التقليد والاكتساب والنطق بالظهور ويتبعها حب المباراة والمخاصمة والخوف . وحينما يتقدم في العمر تظهر فيهِ غرائز الخجل والخجل وحب الالفة والمعاشرة واللعب والميل الى الاستطلاع وحب الاحراز والكسب . ويتلو هذه حب العيد والقنص والتواضع والحب الجنسي . وبعدهُ تظهر العواطف الوالدية والغرائز الادبية والدينية . فبين السنة الخامسة عشرة والسادسة عشرة تكون قد ظهرت كل الغرائز المختصة بالجنس البشري وعددها في الانسان يفوق عددها في كل الحيوانات ذوات الثدي » (١)

لقد ذهب العلماء والفلاسفة مذاهب شتى في تقسيم الغرائز وتبويبها ولكن الاستاذ كركباترك (Kirkpatrik) قسمها الى ستة اقسام متخذاً وظيفة الغريزة او عملها اساساً لهذا التقسيم . وهذه هي :

١ — الغرائز الفردية — والغاية من وجودها المحافظة على الكيان الفردي كالاكل والخوف والغضب والمخاصمة

٢ — الغرائز الوالدية — واهمها الحب الجنسي وعصبة الاولاد وقد تكون عصبة الاولاد للحيوانات الاليفة كالقطط والكلاب وعصبة البنات للعوبتهن من هذا القبيل . ولا يبرح من الذهن ان هذه الغرائز لا تظهر في الوالدين فقط بل كل من جاوز سن البلوغ لهُ قسطهُ منها

٣ — الغرائز الاجتماعية — كحب الالفة والمعاشرة والحياء والحنان والتواضع وحب الظهور والشهرة والمزاحة والمنافسة والحسد

٤ — الغرائز المكيّفة — وهي التي تساعد الانسان حتى يتكيف حسب ما تتطلبهُ بيئتهُ من التغيير ليصبح مناسباً لها وهي لهُ . واهمها التقليد والاكتساب واللعب وحب الاستطلاع

٥ — الغرائز التي من شأنها تنظيم حياتنا الاجتماعية الاخلاقية وتعيين غاياتنا الروحية وضبط القوانين الادبية التي نتمشى عليها وتنسيق المبادىء

(١) ملخص من كتاب السيكولوجيا للاستاذ وليم جيمس

الدينية التي نتبعها . واهم هذه الغرائز ما يتعلق بالآداب والدين

٦ — تحت هذا القسم تنطوي الغرائز التي لا تقع تماماً تحت احد الاقسام السابقة كغريزة الاغتباط بالامتلاك والسرور بالجمال وغرائز البناء والتدمير

وللغرائز نواميس بيولوجية مقررة وصفات خاصة تمتاز بها عن باقي احوال النفس . ومعرفة هذه المميزات ضرورية لكل معلم ومهذب وهي

١ — ان الغرائز في الانسان على غير ما هي في الحيوانات فلا ترسم لهُ سوى خطة عمومية خالية من التفاصيل التي يتعلمها بالاختبار والتجربة . فالغريزة مثلاً تدفع النحلة الى بناء قفيرها بخلاياهُ المسدسة الشكل وتدفع الولد للبناء ولكنها لا تعين لهُ شكل البناء او الغاية منهُ

٢ — لا تظهر الغرائز كلها وقت الولادة بل تتدرّج في الظهور لانها تتبع نمو الجهاز العصبي . فغريزة الحبّ الجنسي قوة كامنة في تركيب الجهاز العصبي ولكنها لا تظهر الاّ في وقت معين — اي في سن البلوغ — وهكذا قل عن كثير من امثالها

٣ — لا تظهر غريزة ما دفعة واحدة في الانسان . فلا ينتظر ان تظهر غريزة جديدة فينا او في اخوتنا او في تلامذتنا بهيئتها الكاملة وتأثيرها الشامل وقوتها العظيمة بين ليلة وضحاها بل ظهورها يتبع ناموس النمو وهو التدرج من البسيط الى المركب

٤ — ان ظهور غريزة ما يدل على ظهور قابلية جديدة قابلة للتكييف والتحول حسب المؤثرات والعوامل الخارجية الموجودة في المحيط الذي يقتضهُ ذلك الفرد — وهنا ميدان العمل العظيم للمعلم النافع اذ بجده واجتهاده وسهرهِ على من وكل اليهِ امر تربيتهم وتهذيبهم يقدر ان يصرف تلك الاميال والقابليات الجديدة في المجاري الصالحة فيبني في نفس من يربيهِ صرح الاخلاق القوي الجميل الذي يثبت امام عواطف الشهوات وتيارات الاميال والرغبات وشبهات جيوش الشر والفساد

٥ — الغرائز سريعة التحول فاذا احسن الفرد استعمالها احسنت اليهِ في مستقبلهِ وان اساءهُ اساءت اليهِ بما تتركهُ في اعماق نفسهِ من الميل الى الشر . واذا اهمل امرها تعبر عبور الطيور القواطع

فواجبات المربي والمعلم اذاً جلية واضحة

الولد يحب الحياة حركة ولعباً وقصصاً خرافية يقصها عليهِ اهلهُ واقاربهُ . والشاب يحسبها رياضة بدنية وقراءة روايات خيالية وواقعية ويشعر بافراحها في الصداقة الصادقة والمحبة الاكيدة ويرى ابتسامها الحلوة في نور الشمس وجمال الازهار وقمامة الجبال ومهابة البحار وفي كل مافي الطبيعة من جلال وجمال ويختبر حقيقتها في المغامرة والاسفار والرحلات والدرس والمطالعة والعلم . والرجل يرى لذتها في النضال المستمر والعمل الدائم والمسئولية العظيمة والسعي نحو الغايات الكمالية الرفيعة والمبادىء النفسية السامية

فاذا بلغ ولد سنّ الشبيبة قبل ان يعتاد التمارين الرياضية المختلفة كالركض والسباحة والقنص وصيد الاسماك وركوب الخيل فمن المرجح انهُ لن يتعلمها فيما بعد . واذا قطع شاب مرحلة الشباب دون ان يزرع في اعماق نفسهِ حبّ التمتع بجمال الطبيعة وجلالها او مطالعة الكتب والصحف المفيدة عند ما تتقد فيهِ تلك الشعلة الروحية فعبثاً يحاول ذلك بعدئذٍ . واذا سار الرجل في معترك الحياة لا يناضل ولا يحارب ولا يغامر بل يستسلم لتيار الانسانية الجارف حاسباً ان لا قبل لهُ بمصادمتهِ فمن المرجح انهُ لا يحرز هذه الصفات الجليلة في كهولتهِ او شيخوختهِ ولا يعود مستحقاً لتلك السمة الشريفة سمة الرجولية الحقة التي لا تمنح الاّ لمن اكمل السعي واحرز النصر

فالمبدأ الاولي الاساسيّ في فن التربية هو هذا

واضرب حديداً حامياً لا تنع منهُ ان يرد

فالواجب الاكبر على المربي ايًّا كان في المدرسة او في البيت ان يدرس من وكل اليهِ امرُ تربيتهم درساً دقيقاً ويلاحظ بدقة الاوقات التي تبدأ فيها الغرائز بالظهور فيتمكن بذلك من ان يكيفها حسبما يتراءى لهُ . مرة واحدة في الحياة يقدر المهذب ان يربي في تلميذهِ المهارة في التصوير . مرة واحدة في الحياة يقدر ان يغرس في نفسهِ الميل الى جمع انواع الازهار والاطيار والحشرات . مرة واحدة في الحياة يقدر ان يوقفهُ في هيكل جمال الطبيعة واسرارها . مرة واحدة في الحياة يقدر ان يربي فيهِ كلا من العادات القويمة والملكات الصالحة التي تصبح حصن نفسهِ الحصين ومعقل حياتهِ الاجتماعية الاخلاقية الثابت . ولذلك يجب عليهِ ان يعرف متى تدنو الساعة وتجيء الفرصة السانحة

ويقدر المربي ان يتسلط على غرائز تلميذه فيخضعها لسلطان ارادته بثلاثة اساليب

١ — ان لا يدع للولد فرصة لا يقترن فيها تلك الغريزة لئلا تمر مرّ السحاب دون ان تترك اثراً

٢ — ان يودع في عقله افكاراً اقوى من الدافع العصبي المجرّد فيقوم بالعمل اذا اتفقت الافكار والاميال ويتوقف عنهُ اذا اختلفتا . ومن هذا القبيل ارشاد الذين يدركون سن البلوغ الى ما فيهِ خيرهم وصلاحهم الصحيّ والادبي

٣ — تمرين الغرائز — العمل الغريزي يترك في الجهاز العصبي اثراً شبيهاً بالمجرى الذي يحفرهُ جدول الماء في الارض . وكما انهُ من طبيعة الجدول ان يجري في المجرى المحفور هكذا العمل الغريزي يتخذ الاثر الذي تركهُ في الدماغ سبيلاً لهُ عند ما يتكرر . فاذا كان الاثر اثر عمل صالح كان العمل الثاني صالحاً وبالتكرار يصبح عادة راسخة . وعلى المعلم ان يدأب ليل نهار على تربية العادات القديمة الصالحة التي هي ذخر الشبيبة وحصنها . فعند ما تظهر في التلميذ غريزة المخاصمة ارسلهُ الى الملعب فيتمرن هناك على المباراة المفيدة ويقتبس مبادىء الامانة في اللعب والطاعة لاولياء الامر . وعند ما تظهر فيهِ غريزة التدمير لا تعطهِ شيئاً ليكسرهُ بل اعطهِ شيئاً مفككاً ليركّبهُ فتتمرن غريزة البناء وتقوى

الغرائز تختلف (من حيث الضرر والافادة) باختلاف المجاري التي تتخذها. فربّ غريزة مفيدة تتخذ مجرى فاسداً فتنقلب شرّاً مستطيراً على صاحبها وعلى الانسانية . فحب الاحراز والكسب مثلاً غريزة مفيدة وضرورية لحفظ الكيان الفردي ولكنها تصبح مضرّة عند ما يتعلم الولد ان يسرق امتعة غيره ليضيفها الى امتعتهِ او عند ما يجمع البخيل المقتر امواله في صندوق حديديّ ويوصد دونها الابواب فلا ينتفع بها ولا يستفيد منها غيرهُ . وقس عليهِ ما جرى مجراهُ

وقبل اختتام هذه المقالة لا بدّ من تنبيه كل مهذب ومربٍّ الى انهُ يرتكب خطأً فادحاً اذا جرّب ضغط القوى الكامنة في الجهاز العصبي عند ما يحين وقت ظهورها فهي لا تقبل الضغط واذا ضغطت فلا بد لها من الانفجار بل خير لهُ ولتلميذه وقعالم ان يحوّلها ويكيّفها ويصرفها في كل ما هو نافع ومفيد

فؤاد صروف